سامي خشبه

الآن .. نحتاج الى فن الابطال

كل الملاحم المصرية والعربية التي صاغها الشعب المصري والعربي في عصور المواجهة الهائلة ضد الصليبيين والتتار . ملاحم عنترة وسيرة بني هلال والاميرة ذات الهمة والظاهر بيبرس والزير سالم وحمزة البهلوان وحكايات الملك النعمان وولديه شركان وقمر الزمان ، التي ضمت الى ألف ليلة وليلة المصرية ، كتبها وصاغها الشعب المصري والعربي في مراحل الصراع الحضاري والقومي الهائل ضد القوى الاجنبية ، الاوروبية والاسيوية التي حاولت تدمير حضارتنا وطمس معالمنا القومية والروحية الاصيلة . انها العصور « البطولية » التي عاشها الشعب العربي في مراحل الدفاع عن نفسه وعن حضارته. وليس من الغريب ان يدمج الشعب في هذه الملاحم عصرين بطوليين دون اعتبار لفارق الزمان بينهما : عصر الفتوح العربية الاسلامية الكبرى ، وهو عصر « الهجوم » الحضاري العربي ، وعصر الحروب ضد الصليبيين والتتار والمغول ، وهو عصر « الدفاع » الحضاري الباسل ، ليس من الغريب ان نرى في هذه الملاحم عنترة بن شداد ، او المهلهل ، عدي بن ربيعة وهو « الزير سالم » او الملك « سيف بن ذي يزن » وهم يدافعون عن الاسلام ويقولون الشعر في مدح الرسول الكريم ، وفي تمجيد القيم الروحية والحضارية البطولية التي رسخها ابطال الفتوح الحقيقيون ، حمزة وعلي وخالد وابو عبيدة وسعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن ومحمد بن قتيبة ومحمد بن القاسم وطارق بن زياد وغيرهم ..

ليس ذلك غريبا لان « القيم » الروحية والحضارية التي رفع رايتها ابطال الهجوم هؤلاء ، هي نفس القيم التي صاغها وجسدها ابطال « عصر الدفاع » ، رغم ان عنترة والمهلهل وسيف بن ذي يزن عاشوا قبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصف قرن على الاقل . لكن الشعب الذي اراد ان يجسد بطولته وقيمه ورموز حضارته الروحية والاخلاقية في « اشخاص » محددين ، وقع اختياره على « الرجال او النساء » الذين عاشوا حياة « الابطال » الحربيين ، وحملوا في نفس الوقت راية القيم الروحية والاخلاقية العزيزة على الشعب ، وجسدوا في اشخاصهم فضائل شعبهم وقاوموا رذائله .

سمتان اساسيتان نراهما في هؤلاء الابطال الملحميين : انهم كانوا ابطالا مقاتلين في ساحات الحرب لا يهزمون ، حتى النساء مثل الاميرة ذات الهمة ، وانهم كانوا « شخصيات » انسانية متكاملة وعلى قدر كبير من الواقعية رغم قدراتها الخرافية التي تتناقض مع قوانين الطبيعة . انها شخصيات واقعية ، وليست مجرد « رموز » غامضة ، وهي واقعية ليس فقط لانها تتكامل في كل جوانب السلوك والعواطف والتفكير : الحب والنزوات والاندفاع والتأمل الرصين والتدبير والمراوغة .. الخ .. ولكن لانها كانت ترتسم في الملحمة ، في العمل الادبي التلقائي الكبير ، على مساحة عريضة من الزمان والمكان ، لكي تصبح في النهاية « نمطا » عاما ، يشير الى كل الافراد الآخرين « المحتملين » من ابناء الشعب ، وفي نفس الوقت تحتفظ بتميزها وتفردها الشخصي : البطل فرد متميز لا مثيل له ، وهو في نفس الوقت نمط يحمل السمات العامة لشعبه كله . وهذا هو القانون الاساسي للواقعية .

ولهذين السببين ، وخاصة لواقعيتهما الانسانية هذه ، ظلت تلك الملاحم تلعب دورا أساسيا في تغذية وجدان الشعب على مر العصور ، وحتى زمن قريب جدا . وجاءت المطبعة ، والتعليم ... وتلاهما الراديو والسينما والمسرح والتليفزيون ، وأزاحت هذه الوسائط الجديدة « شاعر الربابة » مغني الملاحم القديمة من مكانه ومكانته ، وشرعت تقدم اعمالها الخاصة التي يكتبها ادباء وكتاب معروفون بالاسم . حلت الوسائط الجديدة محل الشاعر القديم .. وحل هؤلاء الكتاب الافراد محل الشعب كله في ابداع الاعمال الادبية التي لا غنى للشعب عنها ولا يعيش حياته الوجدانية والعقلية الا بها ..

المدهش اننا نعيش الآن ، ومنذ جيل كامل على الاقل ، عصرا « بطوليا » نواجه فيه غزوة حضارية كبيرة ، ونتحمل فيه ايضا مسؤولية التحول الاجتماعي التاريخي الكبير . الجهد الذي تبذله الامة الآن يسير بكل عناصر « البطولة » في طريقين لا ينفصلان : الجهد العسكري من اجل التحرير ، والجهد السياسي والاقتصادي من أجل التحول الاجتماعي الشامل ، وعلى كل طريق من الطريقين ، ينتصب أبطال حقيقيون ، لا حد لبطولتهم ، ولا حد في نفس الوقت لبساطتهم وتواضعهم النضالي العظيم المشبع بالكبرياء ، والجميع جاءوا من ارحام نفس الشعب ، وخرجوا من نفس المدن والقرى والحقول والمصانع والمدارس والجامعات ، والجميع يناضلون بالدم والعرق والفكر من اجل الدفاع عن وجودنا المادي ذاته ، وعن مقومات وجودنا المعنوي ، قيمنا الحضارية ، الروحية والاخلاقية ، وفي نفس الوقت يهاجمون اوكار التخلف والجهل والفقر والقهر ويدكونها لكي يشيد شعبنا حياته الجديدة .

نحن نعيش في عصر بطولي امتزج فيه الهجوم الحضاري بالدفاع الحضاري .. في معركة وطنية واجتماعية لم يعش وطننا شبيها لها من قبل . وأبطالها لا يتمتعون بقدرات خرافية ، ولكنهم اناس عاديون ، بسطاء ، يثقون في العمل والعلم والحياة والمستقبل ، ويعملون في ساحة القتال وفي ميادين الانتاج بنفس المثابرة والصبر وانكار الذات . ورغم هذا فما اقل ما ابدعه ادباؤنا عن هؤلاء الابطال من اعمال ادبية ، ما اقل الابطال الذين صاغهم ادباؤنا لكي يجسدوا فضائل الشعب في هذا العصر البطولي المزدوج العظيم ، وكي يكونوا انماطا يشيرون الى ملايين الابطال الحقيقيين في كل مكان .. وأفرادا حقيقيين يلهمون الملايين بتجسيدهم البارز المحمل بجمال الفن وطاقته الشعورية الفياضة لفضائل ملايين الابطال الحقيقيين .

ربما كانت لهذا التقصير اسباب موضوعية كثيرة ، ليس هذا مكان بحثها . ولكن ، لا شك ان كل هذه الاسباب يمكن ان تتراجع الان الى منطقة الظل لكي تخلي مكانها للسبب الجديد الذي يدفع بأبطال الحياة الايجابيين العظماء الى مركز الصدارة في ادبنا ومسرحنا واخلاقنا وكل انتاجنا الفني .

هذا السبب هو الذي صاغه جنودنا بالدم على رمال سيناء ، وعلى صخور الجولان وسفوحه . لا مسوغ للتلكؤ في ابداع هؤلاء الابطال : فليمد الكاتب يده الى الحقيقة لكي يحصل على عشرات « الابطال » الحقيقيين ، المتواضعين في بساطة مذهلة ، وهم الذين يجتازون النار والفولاذ في كل لحظة ، ويجترحون المعجزات الانسانية في تلقائية لا يستطيع غير الفن العظيم ان يجعلنا ندرك كل ابعادها .

فلينس كتابنا قليلا الهموم الحقيقية التي افرزت ادب الانهيار، لان املا عظيما ومعركة هائلة تقدم السبب الحقيقي والمبرر لابداع ادب البناء ، البطولي ، الواقعي الذي نتمناه .

الجمهورية
١٩ تشرين الاول